

**العلاقات الإسلامية البيزنطية في النصف الأخير
من القرن الرابع الهجرى ، العاشر الميلادى
في ضوء الاتفاقية الحلبية البيزنطية ٣٥٩ هـ / ٧٩٠ م**

١ . د . د . عليّة عبد السميع الجنزورى *

من الثابت فى التاريخ أن الحمدانيين ماكادوا يستولون على حلب سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م ، حتى اتخذوا تلك المنطقة المتقدمة المجاورة لحدود الدولة البيزنطية قاعدة لشن حروب طويلة متقطعة على البيزنطيين . ويقال إن سيف الدولة الحمدانى وحده غزا بلاد الروم المتاخمة لدولته أربعين غزوة . ومن المدن التابعة للبيزنطيين عندئذ والتي تعرضت لهجمات الحمدانيين زبطرة وعرقه وملطية ومرعش ، ولحماية دولته من ناحية الروم أقام سيف الدولة الحمدانى قلعة الحدث الأمر الذى استثار الروم فقام نقفور فوقاس سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م بغزو قيليقية واستولى على المصيصة وطرطوس (١) .

وقد استهدفنا من هذا البحث إلقاء أضواء على العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية من ناحية والقوى الإسلامية فى شمال الشام من ناحية أخرى وذلك فى القرن العاشر للميلاد ، الرابع للهجرة . واخترنا أن نركز فى ختام هذه الدراسة على الاتفاقية التى عقدت بين قرغوية صاحب النفوذ الفعلى فى حلب بعد وفاة سيف الدولة الحمدانى والبيزنطيين . وقد وصف المؤرخ يحيى بن سعيد الأنطاكى هذه الإتفاقية التى عقدت فى صفر ٣٥٩ هـ (٢) / يناير ٩٧٠ م (٣) بأنها « صلح وهذنة مؤبدة » (٤) .

*** أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد — كلية البنات — جامعة عين شمس .**

- (١) ابن الأثير : الكامل ، حوادث سنة ٣٥٤ هـ .
 - (٢) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ، ص ١٣٥ ، بن العديم : زبدة الطلب من تاريخ حلب ، ج ١ ، ص ١٦٩ .
 - (٣) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ، ص ٥٢٦ .
 - (٤) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ص ١٣٤ .
- (م ٦ — دراسات)

اخترنا هذه الاتفاقية (١) موضوعا لدراستنا نظرا لما لها من أهمية بالغة في تاريخ العلاقات الإسلامية البيزنطية في العصور الوسطى بوصفها من الاتفاقيات الدولية القليلة التي وصلت نصوصها النسا كاملة من تلك العصور ، بل إنها تعتبر من الوثائق التاريخية النادرة التي تتعلق باتفاقية بين المسلمين والمسيحيين قبل عصر الحروب الصليبية (٢) هذا فضلا عن أنها تلقي أضواء على مرحلة هامة من مراحل الصراع بين الدولة البيزنطية والمسلمين في الشرق .

وثمة أهمية أخرى لهذه الاتفاقية ، هي أن الدولة البيزنطية إتخذت منها ركيزة للمطالبة بحقوقها في شمال بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية لا سيما في مستهل تلك الحروب ، عندما ظهرت مطامع أمراء الحملة الصليبية الأولى في تلك المنطقة . ذلك أن الامبراطور البيزنطي حرص منذ وصول الحملة الصليبية الأولى الى حدود بلاده على أن يقسم له أمراء هذه الحملة يمين الولاء والطاعة ، وأن يلتزموا بعدم ذلك برد كافة الممتلكات التي يتم اقتطاعها من السلاجقة من نيقية حتى أنطاكية ، مقابل أن يتعهد الإمبراطور بمساعدتهم بكل قواه وبأن يمدهم بفرق من الجيش البيزنطي في حالة عدم تمكنه من مرافقتهم شخصيا (٣) . ومن أجل تحقيق ذلك تم عقد معاهدة بين الطرفين في مايو ١٠٩٧ م . ومعنى هذا أن الدولة البيزنطية اعتبرت نفسها صاحبة حق طبيعي في السيطرة على إقليم شمال بلاد الشام وخاصة ذلك القطاع الذي يضم أنطاكية وحلب . وكان هذا الإقليم بالذات هو الذي تناولته الاتفاقية التي سنتعرض لها بالبحث بعد قليل . وبعبارة أخرى فإن الدولة البيزنطية اعتمدت في إثبات حقوقها في ذلك الإقليم على سوابق ترجع الى ما قبل عصر الحروب الصليبية بحوالى قرن وثلث من الزمان تقريبا إن لم

(١) أورد ابن العديم الاتفاقية بشيء من التفصيل في كتابه زبدة الحلب ، ج ١ ص ١٦٣ — ١٦٨ . لذا جعلناه أساسا لنا في تحليل ودراسة بنودها .

2 — M. Canard : Histoire de la Dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie T.I.P. 833 .

هنا يضيف (كانار) أن تلك الاتفاقية تعتبر ذات أهمية جوهرية بالنسبة لتاريخ العلاقات بين البيزنطيين والحمدانيين الأواخر في حلب (٣) د . عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٦١ .

يكن الى ما قبل القرن السابع الميلادى — الاول الهجرى — وبداية الفتوحات الإسلامية التى زحزحت النفوذ البيزنطى كلية من بلاد الشام .

وقبل أن نتعرض لهذه الاتفاقية بالدراسة المفصلة ينبغى أن نتعرف على طبيعة ذلك الإقليم الذى يشكل المسرح الذى دارت عليه حلقة من أشد حلقات الصراع الإسلامى البيزنطى ضراوة وعنفا . ولنبدأ بالنصف الثانى من القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى .

ذلك أن موت سيف الدولة الحمدانى فى صفر ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م (١) جاء خسارة كبرى نزلت بالمسلمين فى الشام لما كان معروفا عنه من شدة البأس فى مقاومة الروم أو البيزنطيين (٢) وربما كانت مثابرتة فى مواجهة البيزنطيين هى التى دفعت بعض المؤرخين إلى القول بأنه منذ سنة ٩٤٧ م أى حوالى ٣٣٦ هـ (٣) — فصاعدا وجد البيزنطيون أمامهم بعض العرب الذين اتصفوا « بالجلد والتحمل ، والصلابة والعناد ، مع رغبة قوية فى الطموح » (٤)

ولا أدل على شدة عناد سيف الدولة فى جهاد الروم مما قيل عن أنه حدث فى ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م أن تقدم الروم بقيادة الديمستق (٤) نقفور الى

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ، ص ١٢٧ ، الفزى : نهر الذهب فى تاريخ حلب ، ج ٣ ، ص ٦٤ زامبور : معجم الأنساب ، ص ٢٠١ . هو أبو الحسن على .

(٢) د . عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٤٣ .
(٣) هذه الفترة تواكب فترة حكم سيف الدولة الحمدانى التى تمتد من ٣٣٣ هـ الى ٣٥٦ هـ (زامبور : المرجع السابق ، ص ٢٠١) .
Gaudefroy — Demombynes et Platonov : Le Monde Musulman et Byzantin , T . v11 , P. 324 . — 4 .

(٤) كانت وظيفة الديمستق Domesticus تعنى القيادة العليا للجيش البيزنطى كله . ولما زادت المهام العسكرية للإمبراطورية وتعمقت قسمت تلك الوظيفة ، فمنذ النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى كان هناك ديمستق للجناح الشرقى وآخر للجناح الغربى من الإمبراطورية . عن G . Ostrogorsky : History of the Byzantine State P . 251 .
(R.Guilland : Etudes Sur L'histoire administrative de Byzance)
أما ابن حوقل فقد أشار إلى وظيفة الديمستق على أنها أحد المناصب الكبرى لدى الروم والتى عددها وتكلم عنها بالتفصيل فى كتابه صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ١٩٥ — ١٩٦ .

حلب وذلك بعد أن انقضى صوم النصارى مباشرة فباغتوا حلب في غفلة من سيف الدولة . وكان أن أسرع سيف الدولة بحشد قواته ولكنه لم يستطع الصمود أمام الروم لقلته من معه إذ كان « في نفر يسير » ، مما أدى إلى هزيمته . وعندئذ إستولى الدمستق على داره وما فيها مما لا يحصى من الأموال والسلاح وغيره . ثم حاصر الروم مدينة حلب فصعد لهم أهلها ، وعندما أحدث الروم ثغرة في سور المدينة قاتلهم الحلبيون عليها فقتل من الروم عدد كبير ودفعوهم عنها ، حتى خيم الليل وعندئذ أعادوا تعميرها . وفي ذلك الموقف الخطير إتجه رجال الشرطة في حلب إلى منازل الناس وخانات التجار لينهبوها ، فلحق بهم الأهالي ليمنعوهم ، الأمر الذي ترتب عليه خلو السور منهم ، فتسلق الروم السور ودخلوا البلد بالسيف وخلصوا حوالي ألف وأربعمائة من أسراهم وجمعوا السلاح وقتلوا الناس وسبى من البلد « بضعة عشر ألف صبي وصبية وغنموا مالا يوصف كثرة » . فلما لم يبق مع الروم ما يحلون عليه الغنيمة أمر الدمستق بإحراق مالم يستطيعوا حمله ، في الوقت الذي انسحب الأهالي إلى القلعة يحتمون بها . وهكذا ظل الدمستق في حلب حوالي تسعة أيام حتى إذا ما أراد الرحيل بما غنم قال له ابن أخت الإمبراطور الذي كان يرافقه « قد بلغنا مالم يكن الملك (١) يؤمله وغنمنا وقتلنا وخربنا وخلصنا أسرانا وبلغنا مالم يسمع بمثله » وحرضه على البقاء والاستيلاء على القلعة . وكان أن اتفقا على أن يتقدم ابن أخت الإمبراطور إلى القلعة ليستولى عليها في حين ينتظره الدمستق لحراسة سور المدينة . لكن ما أن إقترب ابن أخت الإمبراطور من القلعة حتىلقى عليه حجر أرداه قتيلا ، فعاد به أصحابه إلى الدمستق ، الذي أمر بقتل كل من معه من الأسرى المسلمين وكانوا ألفا ومائتي ثم عاد إلى بلاده (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن هجمات الروم على حلب في ذلك الدور أدت إلى إضعاف تلك الإمارة الإسلامية ، فاضطربت أحوالها وساعت .

وضاعف من سوء الأحوال في حلب أن خليفة سيف الدولة في حكمها ، وهو ابنه ساعد الدولة لم يكن على درجة من الكفاءة تمكنه من مواجهة الهجوم البيزنطي ، إذ كانت تنقصه شجاعة أبيه وحكته السياسية مما أغرى بعض أمراء دولته على الخروج عليه (٣) .

-
- (١) المقصود بالملك هنا الإمبراطور رومانس الثاني Romanus 11 (٩٥٩ — ٩٦٣ م (G. Ostrogorsky : OP . cit , p.578) . أما الدمستق فكان نففور فوقاس الذي أصبح بعد ذلك إمبراطورا بإسم نففور الثاني .
- (٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥١ هـ .
- (٣) د . عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٤٣ .

والواقع إن الحاكم الحقيقي لحلب عند وفاة سيف الدولة كان الحاجب قرغوية (١) ، غلام سيف الدولة وكان سعد الدولة أبو المعالي شريف مقيما في ميانارقين مع والدته عند وفاة أبيه ، فأسرع بعض غلمان سيف الدولة الى استدعائه ، ووصل الى حلب في ربيع الأول ٣٥٦ هـ (٢) ٩٦٧ م .

وسرعان ما دبت الخلافات بين سعد الدولة وابن عمه أبي فراس الحارث بن سعيد بن حمدان ، فتوجه سعد الدولة لمحاربته بصحبة قرغوية وإنتهى الأمر بمقتل أبي فراس بتدبير الحاجب قرغوية وبعض غلمانه وذلك سنة ٣٥٧ هـ (٣) / ٩٦٨ م .

وزادت الأمور تعقيدا عندما عاد إمبراطور الروم نقفور الثاني فوقاس Nicephoros 11 Phocas « ٩٦٣ — ٩٦٩ م (٤) / ٣٥٢ — ٣٥٩ هـ » الى تهديد شمال بلاد الشام (٥) في نفس السنة السابقة وبني حصن بغراس أمام أنطاكية وتناقل الناس القول بأنه ينوى مهاجمة أنطاكية وحلب وعندئذ أشار الحاجب قرغوية على سعد الدولة بأن يخرج من حلب حتى لا يحاصر فيها . وعندنا إستجاب سعد الدولة لمشورته وخرج إلى بالس أرسل إليه قرغوية يقول « إمض الى والدتك فإن أهل حلب لا يريدونك ولا يتركونك تعود إليهم » .

ولم يلبث أن قطع قرغوية الدعاء لسعد الدولة من حلب وتقرب إلى

(١) يسميه جروسية René Grousset : L'Empire bu Lenvant, p. 116 (الوزير) وهى تسمية غير سليمة بينما يسميه كانار (Chamballan) أى الحاجب وهى تسمية أصح .

(M. Canard : Histoire de le Dynastie des Hamdanides de Jazira et de Syrie , T.1 , P. 831 .

(٢) ابن العديم : زبدة الطلب ، ج ١ ، ص ١٥٥ . دخل حلب يوم الاثنين ٢٠ ربيع الأول ٣٥٦ هـ .

(٣) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .
4 — G. Ostrogorsky : Op cit , P. 578, A.A Vasiliev : Histoire de L, Empire Byzantin, T.1 , P. 408 , Gaudefroy - Demombunes et Platonov : OP . cit , T. v11 , P. 461 .

(٥) كانت أهم المدن التى فتحها نقفور هى : معرة النعمان ، معرة مصرين ، كفر طاب ، شيزر ، حماه ، حمص ، عرقة ، طرابلس ، جبلة واللاذقية . ويقال أنه جاءه أبو الحسن على ابن ابراهيم بن يوسف التميمي باللاذقية فوافقه على رهائن تدفع إليه منها وكافأه نقفور بأن جعله (سردغوس) بمعنى ستراتيغوس أى حاكم عسكري للمدينة (ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٥٨ — ١٥٩) .

أهلها بتحصين قلعتها وإعادة بناء سور البلد وتقويته (١) ، في الوقت الذي عاد إمبراطور الروم إلى بلاده بعد أن سمع بأخبار تلك التحصينات أما قرغويه فقد إستبد بحكم حلب ، وشاركه في حكمها غلامه بكجور « ودعى لهما على المنابر » وذلك ٣٥٨ هـ (٢) / ٩٦٨ — ٩٦٩ م .

على أن سعد الدولة أبو المعالي لم يستسلم لتلك الأوضاع ، فعاد الى حلب في رمضان ٣٥٨ هـ لمحاربة قرغويه واستمر يناوئه لمدة ثلاثة أشهر (٣) ولكنه لم يستطع استرداد المدينة من قرغويه الذي استولى على حلب وطرده منها ابن استاذة (٤). وبطبيعة الحال كانت النتيجة الحتمية لتلك الإحتكاكات هي إضعاف الجبهة الحلبية في مواجهة البيزنطيين .

والواقع إن الإمبراطور نقفور فوقاس كان لا يمكن أن يترك تلك الفرصة تمر دون تحقيق أطماعه في شمال الشام . وقد عرف عن ذلك الإمبراطور أنه من أبرز أباطرة الأسرة المقدونية — التي حكمت بيزنطة من ٨٦٧ حتى ١٠٥٦ م (٥) — والذين اشتهروا بالكفاية والمقدرة (٦) .

وتنقسم جهود نقفور فوقاس في الشرق في السنتين الأخيرتين من حكمه (٩٦٨ — ٩٦٩ م) الى قسمين : الأول وهو العمليات الحربية التي قام بها وأشرف عليها بنفسه ، والثاني وهو إمتداد هذه العمليات عن طريق قواده وجيوشه في الشام حتى آخر عهده (٧) .

أما فيما يخص جهود نقفور — الذاتية — وهذا يجعلنا نتراجع قليلا للخلف — فيهمنا منها ما قام به في بلاد الشام آخر سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م ، فقد توجه الى شمال بلاد الشام ونزل بأنطاكية يومين رحل بعدها الى معرة مصرين وأمن أهلها من القتل وكان عددهم حوالي ألف ومائتي نفس وسيرهم الى بلاده ثم فتح معرة النعمان وحماه وحصص ومنها سار الى

(١) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

(٢) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦١ . كان قرغويه

يخاطب بالحاجب وغلامه بكجور بالأمير .

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه ، ص ١٣٣ .

(٤) الفزى : نهر الذهب ، ج ٣ ، ص ٦٥ .

(٥) G . Ostrogorsky : Op . cit , P. 574 .

(٦) د . عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٣٥ .

وقد إتصف نقفور فوقاس بالذات بالبراعة الشديدة في التكتيك الحربي .

(Larousse Encyclopedia of Ancient and Medieval History , the middle ages, P. 290) .

(٧) د . عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٤٣ .

طرابلس ونزلها يوم عيد الأضحى ، العاشر من ذى الحجة ٣٥٧ هـ وأقام عليها تلك الليلة « وأحرق ربضها » وحاصر مدينة عرقة تسعة أيام وفتح حصنها المنيع بالسيف وأخذ ما فيه من الناس والأموال ثم رجع إلى بلدان الساحل ففتح حصن إنطربوس ومرقية وحصن جبلة وصالح أصحاب اللاذقية عليها وخرب من القرى ما لا يحصى ثم عبر إلى أنطاكية وبنى حصن بغراس مقابلها « ورتب فيه رئيسا يقال له ميخائيل البرجى ورسم لسائر أصحاب الأطراف طاعته ورتب معه ألف رجل ورجع الملك إلى القسطنطينية وأعاد إلى أنطاكية غلامه بطرس الإسطراطوبدرخ (١) » .

وإذا كان يحيى بن سعيد الأنطاكى قد أورد تلك الأحداث في آخر سنة ٣٥٧ هـ ، فإن ابن الأثير وضعها ضمن حوادث سنة ٣٥٨ هـ ، والراجح أن جزءا منها في آخر السنة الأولى والباقي في السنة الثانية ، فقد بين ابن الأثير أن نقفور بعد أن توجه إلى بلاد الساحل — وكان ذلك أوائل سنة ٣٥٨ — « أقام في الشام شهرين يقصد أى موضع شاء ويخرب ماشاء ولا يمنعه أحد وصار للروم الهيبة في قلوب المسلمين (٢) » .

(M. Canard : Histoire de la Dynastie des Hamdani des , T. 1 P. 832) .

والراجح أنه كان أحد قواد نقفور وابن شقيقه في نفس الوقت كما هو واضح من إسمه الذى أورده أستروجورسكى .
(G. Ostrogorsky : Op . cit , P. 290) .

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ، ص ١٣١ . وبطرس الإسطراطوبدرخ هو نفسه الذى سماه ابن العديم الطربازى وهو بطرس فوقاس Pierre Phocas أو Peter Phocas ابن شقيق نقفور وهو قائد الحامية البيزنطية في شمال الشام . أما ميخائيل البرجى فهو Michel Bourtze أو Michael Burtzes في المراجع الأجنبية .

(Rensé Grosset : L' Empire du Levant, P. 116 , G. Ostrogorsky : Op .

cit , P. 290 .
اسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم ، ص ٢٠٢ ، ص ٤٢) وإذا كان يحيى بن سعيد يشير إلى وصلاتهم بالعرب ، د ٢ ، ص ٤٢) وإذا كان يحيى بن سعيد يشير إلى بطرس بأنه كان غلام نقفور فإن جروسية ومن أخذ عنه مثل أسد رستم يقولون إنه كان ابن شقيق نقفور فوقاس . أما ابن العديم فيشير إليه على أنه كان « خادما لنقفور » (ابن العديم : زبدة الحلب ، د ١ ، ص ١٦١) . بينما يذكر كانار أنه « أحد قواد نقفور وأنه كان خصيا » .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٨ هـ .

لكن لماذا عاد نقفور الى بلاده بعد ذلك ، هل كان ذلك بسبب تحصينات انطاكية وحلب معا كما ذكر ابن الأثير ؟ « أراد أن يحصر انطاكية وحلب فبلغه أن أهلها قد أعدوا الذخائر والسلاح وما يحتاجون إليه فامتنع من ذلك » ، (١) أم أن عودته كانت راجعة الى شدة تحصينات قرغويه لحلب ؟ « حين علم ملك الروم بتقوية قرغويه لحلب دخل بلاده » . (٢) لكن إذا كان هذا مادونه المصدر العربي فإن المصادر البيزنطية والغربية لم تبرز سببا جوهريا لتلك العودة ولو أنه من المرجح أن الإمبراطور عاد عندئذ ليوجه ضربة سريعة قوية للبلغار على الدانوب (٣) .

وكل ما يهنا هو أن نقفور عاد الى بلاده من شمال الشام في أوائل ٣٥٨ هـ وبالتحديد بعد مضي حوالى شهرين (٤) منها « مطلع ٩٦٩ م » (٥) ، ومعه من الصبى حوالى مائة ألف شخص « ولم يأخذ إلا الصبيان والصبايا والشبان » أما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه (٦) .

والواقع أن سياسة نقفور في بلاد الشام ، وإصراره على القيام بحملة على تلك البلاد سنة بعد أخرى ، أدت إلى تحول شديد في ميزان القوى في شمال بلاد الشام آنذاك لمصلحة البيزنطيين .

وكان أن تضافرت عدة عوامل في ذلك الوقت لتسهيل مهمة البيزنطيين في الإستيلاء على شمال بلاد الشام ، وكانت أول مدينة هامة تسقط في أيديهم بعد قليل هي مدينة انطاكية .

ذلك أن انطاكية كان قد إعتراها الضعف بسبب إفتقارها إلى الرجال المحاربين بعد أن أسر الإمبراطور عددا كبيرا من شبابها الأقوياء .

يضاف الى ذلك اضطراب الأحوال الداخلية في انطاكية آنذاك . من ذلك ما يتردد في المصادر عن وصول رجل أسود اليها من مصر « ممن أفلت من صعليك الطرسوسيين يعرف بالرغيلي » جاءها في قوة قليلة ليفزو بهم

(١) ابن الأثير : المصدر السابق ، حوادث ٣٥٨ هـ .

(٢) ابن العميد : تاريخه ، ج ١ ، ص ١٦١ .

3 — G. Ostrogorsky : Op . cit , P. 292 .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٨ هـ .

5 — G. Ostrogorsky : Op . cit , P. 292 ,

أسد رستم : المرجع السابق ، ص ٤٢

د . جوزيف نسيم : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٦٧ .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٨ هـ .

الى اطراف الروم واقام بها فترة مع علوش الكردي الذي كان يتولاها آنذاك ثم اغتيل الرغيلي علوش وانفرد بحكم انطاكية « حتى جاءها بطرس الإسراطوبدوخ » (١) أو بطرس فوقاس من قبل الامبراطور نقفور ، كما مر بنا ، وعندئذ انضم اليه ميخائيل بورتزيه المقيم بحصن بغراس .

فاذا أضفنا الى ذلك دور أهل بوقة (٢) من النصارى الذين كان الإمبراطور نقفور قد إستولى على بلدهم وإتفق معهم على أن ينتقلوا إلى انطاكية متظاهرين بأنهم إنما فعلوا ذلك خوفا من الروم . ولكنهم في حقيقة الأمر كانوا عوناً للروم الذين ماكادوا يصلون إلى انطاكية حتى اعانوهم على فتحها ، ففعلوا ذلك كما اتفقوا أيضاً مع نصارى انطاكية ثم كاتبوا « الطربازى » (٣) أو Pierre le Stratopedarque ويرجح أنه في نفس ذلك الوقت أيضاً أرسل قرغويه الى الطربازى مستنجداً بعد أن حاصره سعد الدولة أبو المعالى ، وبالفعل سار الطربازى نحوه ثم « عدل إلى انطاكية » (٤) .

وهكذا حانت الفرصة لقوات نقفور فوقاس لفرض سيطرتها على الجزء الشمالى من بلاد الشام فى الوقت الذى كان الإمبراطور نفسه مقيماً فى القسطنطينية يقضى السنة الأخيرة من حكمه .

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه ، ص ١٣٣ — ١٣٤ . هنا يذكر (كانار) أن السلطة فى انطاكية انتقلت من علوش الكردي الى المصرى الاسود الذى كان فيما مضى ضمن حامية طرطوس (M. Canard . Op. cit, T. 1. P. 832)

(٢) بوقة أو بوقا قرية من قرى انطاكية (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، دار صادر ودار بيروت، ج١ ، ص ٥١٠) .وقد بنى هشام بنى عبد الملك « حصن بوقا من عمل انطاكية ثم جدد وأصلح حديثاً » (البلاذرى : كتاب فتوح البلدان ، نشر الدكتور صلاح الدين المنجد ، القسم الاول، ص ١٧١) أما ابن حوقل فقد حددها على الخريطة التى رسمها وسمّاها « صورة الشام » بأنه إذا جعلنا بلاد الروم إلى الجنوب وجبل اللكام شرقاً وضفة الفرات غرباً تكون سمياط وملطية على ضفة الفرات وإلى الشرق منهما شمشاط « ويأخذ من شمشاط طريق إلى الجبل وعليه دلوک ورعيان ومرعش وبوقا وأسفل بوقا الحدث » أما انطاكية فتقع فى شمال غرب بوقا .

(ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الاول ، ص ١٦٦ — ١٦٨)

(٣) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٩ هـ ، ابن ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦١ .

وهكذا تضافرت جهود نصارى بوقه والنصارى المقيمين فى انطاكية ذاتها « وكاتبوا الطريازى حين خرج ، بأن انطاكية خالية ، وليس بها سلطان . » (١)

ولا شك فى أن ضعف انطاكية حينذاك بالإضافة إلى دور أهل بوقه ساعدا فى تسهيل مهمة دخول بطرس فوقاس وميخائيل بورتزيه إلى انطاكية وتم ذلك فى ذى الحجة ٣٥٨ هـ (٢) / أكتوبر ٩٦٩ م . (٣) أو فى أول سنة ٣٥٩ هـ (٤) / ٩٦٩ م . ولو أنه من المرجح أن انطاكية تعرضت لحصار من جانب الروم إستمر من ذى الحجة ٣٥٨ هـ حتى أول ٣٥٩ هـ ، حتى تمكنوا من دخول المدينة والإستقرار بها .

وما أن دخل الروم انطاكية حتى أشعلوا فيها النيران ووضعوا السيف فى أهلها وأسروا عددا كبيرا من شباب المسلمين ورجالهم ونسائهم ، بل بلغ بهم الحد أن « جعلوا الجامع صيرة للخنازير » (٥) ثم طرد بقية الأهالى المسلمين من المشايخ والعجائز والأطفال من البلد (٦) . وأعيد تعميرها بواسطة عناصر مسيحية خصوصا من الأرمن (٧) .

ويعلق ابن حوقل تعليقا معبراً عن موقف القوى الإسلامية المتخاذل من سقوط المدينة فى قبضة الروم فيقول « فتحها الروم فى أول سنة تسع وخمسين فما اضطرب فيها من قطع شعرة للروم ولا توصل فى نصرتها برأى

(١) ابن العديم : المصدر السابق ، د ١ ، ص ١٦٢ .

(٢) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ، ص ١٣٤ ، وهو يذكر أن ذلك كان فى ثالث عشر ذى الحجة ، ابن العديم : تاريخه ، د ١ ، ص ١٦٢ ويذكر أن ذلك حدث لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة أى فى رابع عشر ذى الحجة .

3 — G. Ostrogorsky : Op . cit , P. 290 , René Grousset : L' Empire du Levant , P. 116 .

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ١٨٠ ، ابن الاثير : الكامل ، حوادث ٣٥٩ هـ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، حوادث ٣٥٩ هـ ، ابن العديم تاريخه ، د ١ ، ص ١٦٢ — ١٦٣ . هنا يذكر ابن الاثير أن عدد من سبى فى ذلك الوقت كان يزيد على عشرين ألف إنسان .

(٦) ابن الاثير : المصدر السابق ، حوادث ٣٥٩ هـ .

7 — René Grousset . L' Empire du Levant . P. 116 .

صحيح ولا مشلول وبجوارها من السلاطين والبوادي والقروم والملوك من قد أشغله يومه عن غده وحرامه وحطامه عما أو جب الله تعالى والسياسة والرياسة عليه فهو يلا حظ مافي أيدي تجار بلده ويشتمل عليه ملك رعيته ليوقع الحيلة على أخذه والشبكة على صيده والفخ على ما نصب له ثم لايمتنع به فيسلب عما قريب ما احتقب من الحطام وجمع من الآثام » . (١)

وقد قوبل سقوط أنطاكية في يد البيزنطيين بارتياح كبير في العالم المسيحي أجمع ، وعلق بعض المؤرخين المحدثين على ذلك بقولهم « لقد تم الانتقام بعد مرور قرون عديدة من البؤس والهزائم » (٢) هذا في حين هلل البعض الآخر بعودة أنطاكية للبيزنطيين ، ووصفها بأنها « أنطاكية العظيمة ثيوبوليس Theopolis المجيدة ، مدينة البطارقة العظام ، مدينة الرسل العظام ، مدينة الجامع والبدع والهرطقة » (٣) .

والواقع أن الاستيلاء على أنطاكية كان من أخطر النتائج التي أسفر عنها التدخل البيزنطي في الشام في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) لما ترتب عليه من عودة تلك المدينة الى أحضان المسيحية بعد أن ظلت في أيدي المسلمين منذ أن انتزعوها في صدر حركة الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي ، عندما اضطر الامبراطور هرقل ٦٣٥م / ١٤ هـ الى التخلي عنها ، وباستيلاء البيزنطيين عليها في القرن العاشر عادت مرة أخرى للحكم البيزنطي وأصبح يحكمها حاكم يعينه الإمبراطور البيزنطي ، كما غدت تلك المدينة الحصينة المعقل الأمامي للإمبراطورية البيزنطية على حدود شمال الشام ، وظلت كذلك حتى تمكن المسلمون من استردادها (٤) .

(١) ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الأول ، ص ١٨٠ .

Schlumberger . عن Rene Grosset : Op . cit , P. 116 — 2

3 — A . A . Vasiliev . . Op. cit, T. 1, P. 409 .

Theopolis اسم اعطاه جستنيان للمدينة . ولقد كان لأنطاكية أهميتها بالنسبة للمسيحيين عامة وللدولة البيزنطية خاصة ، إذ كانت مقر مطرانية هامة ، وكانت لها ارتباطاتها التاريخية والدينية ببيزنطة منذ القدم ، كما كانت مركزا من المراكز المسيحية الهامة منذ العهود الأولى للمسيحية . وقد ظلت تابعة للحكم الاسلامي نحو ثلاثة قرون .

(G. Ostrogorsky : Op. cit , P. 290 ,

د . عمر كمال توفيق : مقدمات العدوان الصليبي على الشرق

العربي ص ١٨ ،

Larousse Encyclopedia of Ancient and Medieval History , the Middle Ages , P. 290 .

(٤) د . عمر كمال توفيق : تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١٤٤ .

وإذا كان السلاجقة المسلمون قد استولوا على أنطاكية بعد ذلك في العاشر من شعبان ٤٧٧ هـ (١/١٠٨٥ م فإن قصر المدة بين تلك السنة وفتح الصليبيين لها سنة ١٠٩٨ م أمر له دلالاته بالنسبة لدارسى تاريخ الحروب الصليبية لأن تلك الفترة القصيرة لم تكف لمحو معالم الحكم البيزنطى وإزالة بقايا الإدارة البيزنطية من المدينة مما جعل الدولة البيزنطية تتمسك بحقها الشرعى فى أنطاكية وتصر على ذلك الحق منذ اليوم الأول الذى قامت فيه إمارة أنطاكية الصليبية (٢) فى ١٠٩٨ م / ٤٩٢ هـ .

وفى غمرة الانتصارات التى حققها الروم فى أنطاكية كان لابد من أن يتطلعوا الى توسيع نفوذهم فى شمال الشام حيث مازالت مدينة حلب تشكل عقبة كؤود فى وجه التوسع البيزنطى . وقد مر بنا كيف توافق زمنيا استنجد نصارى أنطاكية قبل فتحها ببطرس فوقاس (الطريزى) مع استنجد قرغويه ضد أبى المعالى سعد الدولة الذى كان محاصرا له . وقد شرع بطرس فوقاس فى السير فعلا لنجدة قرغويه الا أنه غير خط سيره فى آخر لحظة الى أنطاكية ونجح فى الاستيلاء عليها . وبعد ذلك جاء دور حلب فتوجه اليها بطرس فوقاس لنجدة قرغويه .

ويبدو أن سعد الدولة خشى عاقبة الاصطدام بالروم ، وخاصة بعد أن استفحل خطرهم بالاستيلاء على أنطاكية ، فعدل عن حصار حلب وسار منها الى حمص وهذا ما عبر عنه يحيى بن سعيد الأنطاكى بقوله « لما عرف أبو المعالى فتح أنطاكية رحل عن حلب الى حمص وأقام بها » (٣) . وبالفعل أنفذ الروم « جيشا كثيفا » الى حلب (٤) .

ولا شك فى أن زحف الروم على حلب لم يكن بدافع نجدة قرغويه بقدر ما كان وليد الرغبة فى الاستيلاء على حلب ذاتها ولذلك ما كادوا يصلون الى أسوارها حتى شرعوا فى مهاجمة المدينة من شمالها وحاصروا قلعتها (٥) وبعد أن استمر حصارهم لها « سبعا وعشرين يوما » أدركوا صعوبة

(١) ابن القلائس : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٧ .

(٢) د . سعيد عاشور . الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٠٠ — ١٠١ .
كان سليمان بن قتلش السلجوقى قد باغت أنطاكية (وملكها سرقة) من فلاريتوس الأرمنى .

(٣) يحيى بن سعيد الأنطاكى : تاريخه ، ص ١٣٤ . هنا يذكر ابن العديم أن أبو المعالى رحل الى خناصره ثم الى معرة النعمان . (ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٦٣) .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، حوادث ٣٥٩ هـ .

(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

الاستيلاء عليها ، فترددت المراسلات بين بطرس فوقاس وبين قرغويه الى أن تقرر الأمر على صلح وهدة مؤبدة » (١) .

وهكذا وجد قرغويه نفسه مضطرا الى عقد هدنة مع البيزنطيين بعد أن تسبب هو في اضعاف الجبهة الاسلامية في شمال الشام بعدم اتحاده مع سعد الدولة . أما عن أهم بنود تلك المعاهدة فيمكن الوقوف عليها مما ذكره ابن العديم (٢) :

١ — « هادنهم قرغويه على حمل الجزية عن كل صغير وكبير من سكان المواضع التي وقعت الهدنة عليها ، دينار قيمته ستة عشر درهما اسلامية وان يحمل اليهم في كل سنة عن البلاد التي وقعت الهدنة (٣) عليها سبعمائة ألف درهم » .

وكما يفهم من هذا البند فانه اختص بتحديد الجزية التي على الرؤوس والخراج الواجب على الأرض . وقد فرضت الجزية على كل مسلم بدون استثناء بالاضافة الى أن الخراج الواجب على أرض الهدنة كلها حدد بسبعمائة ألف درهم » .

٢ — « يكون الأمير على المسلمين قرغويه ، والأمر بعده لبكجور ، وبعدهما ينصب ملك الروم أميرا يختاره من سكان حلب وليس للمسلمين أن ينصبوا أحدا » .

نص هذا البند على أن يتولى إمرة حلب الحاجب قرغويه ثم بكجور ثم

(١) يحيى بن سعيد الأنطاكي : تاريخه ، ص ١٣٤ .

(٢) أورد ابن العديم المعاهدة أو الاتفاقية بشيء من التفصيل في كتابه زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٦٣ : ١٦٨ .

(٣) فصل ابن العديم في المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٦٤ — ١٦٥ هذه البلاد على النحو التالي : « حمص ، جوسية ، سلمية ، حماه ، شيرز ، كفر طاب ، أفامية ، معرة النعمان ، حلب ، جبل السماق ، معرة مصرين ، قنسرين والآثار إلى طرف البلاط الذي يلي الآثار وهو الرصيف إلى أرحاب ، إلى باسوفان إلى كيمار إلى برصايا ، إلى المرج الذي هو قريب عزاز ، ويعين الحد كله لحلب والباقي للروم ، ومن برصايا يميل إلى الشرق ، ويتصل وادي أبي سليمان إلى فج سنياب إلى نافوذا ، إلى أوانا إلى تل حامد ، إلى يمين الساجور إلى مسيل الماء إلى أن يفضى ويختلط بالفرات (أنظر يا قوت الحموى : معجم البلدان ، الفزى : نهر الذهب في تاريخ حلب ، Dussaud :

(Topographie Historique de la Syrie Antique et Medievale)

ومعظم هذه البلاد يقع عند القسم الأوسط من جبل بهرا حسب تقسيم ابن حوقل : : صورة الأرض ، القسم الاول ، ص ١٦٦ .

يولى إمبراطور الروم بعد ذلك من يشاء من سكان حلب دون تدخل من المسلمين .

٣ — « لا يؤخذ من نصرانى جزية فى هذه الأعمال ، الا اذا كان له بها مسكن أو ضيعة » .

وهذا البند جعل شرط الجزية على المسيحي أن يكون له مسكن أو أرض ببلاد الهدنة وبذلك إستثنى المسيحيين الذين لا يملكون شيئا .

٤ — « إن ورد عسكر إسلامى يريد غزو الروم منعه قرغويه ، وقال له : « إض من غير بلادنا ، ولا تدخل بلد الهدنة » فان لم يسمع أمير ذلك الجيش قاتله ومنعه ، وإن عجز عن دفعه كاتب ملك الروم (١) والطربازى لينفذ اليه من يدفعه » .

وبذلك فرضت المعاهدة الا تستخدم أرض حلب معبرا لآى جيش اسلامى يقصد بلاد الروم ، واذا أصر قائد ذلك الجيش على اختراق أراضى حلب فى طريقه لغزو بلاد الروم ، وجب على أمير حلب صده ومقاتلته ، فاذا عجز كاتب إمبراطور الروم أو ابن أخيه بطرس فوقاس « الطربازى » ليعث اليه من يرد ذلك الجيش .

٥ — « متى وقف المسلمون على حال عسكر كبير كتبوا الى الملك والى رئيس العسكر ، وأعلموها به لينظروا فى أمرهما » .

أى أنه اذا علم مسلمو حلب أو البلاد التى تشملها هذه الهدنة بتحرك جيش كبير الى بلاد الروم كتبوا الى الامبراطور والى قائد جيشه وأخبروها به ليتخذوا حذرهم ويعدوا له عدتهم .

٦ — « إن عزم الملك أو رئيس العسكر على الغزاه الى بلد الاسلام تلقاه بكجور الى المكان الذى يؤمر بتلقيه اليه ، وأن يشيعه فى أعمال الهدنة » .

اذا عزم الامبراطور أو قائد جيشه مهاجمة بلاد المسلمين تلقاه بكجور الى المكان الذى يؤمر بتلقيه اليه ويرافقه داخل نطاق منطقة الهدنة .

(١) المقصود به امبراطور الروم لكن ابن العديم يسميه باسم الملك فى بيود المعاهدة كلها .

٧ — « لا يهرب من في الضياع لبيتاع العسكر الرومى ما يحتاجون اليه ، سوى التبن ، فانه يؤخذ منهم على رسم العساكر بغير شيء » .

وفي الحالة السابقة يظل أهالى البلاد التى تشملها الهدنة فى أماكنهم حتى يبتاع جيش الروم منهم ما يحتاج اليه ، ما عدا (التبن) — وهو علف الخيل — فانه يؤخذ منهم دون مقابل .

٨ — « يتقدم الأمير بخدمة العساكر الرومية الى الحد ، فاذا خرجت من الحد عاد الأمير الى عمله » .

يتقدم أمير حلب بخدمة القنات الرومية الى حدود البلاد المشمولة بالهدنة فاذا فارقت حد منطقة الهدنة عاد أمير حلب الى مقره .

٩ — « إن غزا الروم غير ملة الاسلام سار اليه الأمير بعسكره ، وغزوا معه كما يأمر » .

اذا خرج الجيش الرومى لمحاربة غير المسلمين سار اليه أمير حلب بقواته وحاربوا معه .

١٠ — « أى مسلم دخل فى دين النصرانية فلا سبيل للمسلمين عليه ، ومن دخل من النصارى فى ملة الاسلام فلا سبيل للروم عليه » .

أى مسلم دخل النصرانية لا حكم للمسلمين عليه ، وأى نصرانى دخل الاسلام لا حكم للروم عليه .

١١ — « متى هرب عبد مسلم أو نصرانى ، ذكرا كان أو أنثى ، من غير الأعمال المذكورة اليها ، لا يستره المسلمون ، ويظهرونه ، ويعطى صاحبه ثمنه عن الرجل ستة وثلاثون دينارا ، وعن المرأة عشرون دينارا رومية ، وعن الصبى والصبية خمسة عشر دينارا ، فان لم يكن له ما يشتريه أخذ الأمير من موله ثلاثة دنائير ، وسلمه اليه . فان كان الهارب معيدا فليس للمسلمين أن يمسكوه ، بل يأخذ الأمير حقه من موله ، ويسلمه اليه » .

اذا هرب رق مسلم أو نصرانى ذكرا أو أنثى من غير أعمال الهدنة الى حلب وأعمالها لا يخفيه المسلمون ويعطى صاحبه ثمنه عن الرجل ستة وثلاثون دينارا وعن المرأة عشرون دينارا وعن الصبى والصبية خمسة عشر دينارا ، فاذا لم يوجد من يشتريه أخذ أمير حلب من موله ثلاثة دنائير وسلمه اليه .

١٢ — « إن سرق سارق من بلاد الروم ، واخفى هاربا ، أنفذه الأمير الى رئيس العسكر الرومى ليؤدبه » .

إن سرق سارق من بلاد الروم ، وفر هاربا الى حلب وأعمالها أرسله أميرها الى قائد الجيش الرومى ليؤدبه .

١٣ — « إن دخل رومى الى بلد الاسلام فلا يمنع من حاجته » .

١٤ — « إن دخل من بلد الاسلام جاسوس الى بلد الروم اخذ وحبس » .

١٥ — « لا يخرب المسلمون حصنا ، ولا يحدثوا حصنا ، فان خرب شيء أعادوه » .

لا يخرب المسلمون حصنا ولا يعبروا حصنا ، داخل البلاد التى تشملها الهدنة .

١٦ — « لا يقبل المسلمون أميرا مسلما ، ولا يكتبوا أحد غير الحاجب وبكجور . فان توفيا لم يكن لهم أن يقبلوا أميرا من بلاد الاسلام ، ولا يلتمسوا من المسلمين معونة ، بل ينصب لهم من يختاره من بلاد الهدنة » .

لا يرتضى المسلمون فى حلب أميرا مسلما ولا يكتبوا أحدا غير الحاجب قرغويه وبكجور فاذا توفيا لا يقبلوا أميرا من بلاد المسلمين أو يطلبوا منه معونة بل ينصب لهم إمبراطور الروم من يختاره من بلاد الهدنة .

١٧ — « ينصب لهم الملك بعد وفاة الحاجب وبكجور قاضيا منهم ، جرى أحكامهم على رسمهم » .

يختار إمبراطور الروم بعد وفاة الحاجب قرغويه وبكجور قاضيا من المسلمين يرجعون اليه فى أحكامهم .

١٨ — « للروم أن يعبروا الكنائس الخربة فى هذه الأعمال ، ويسافر البطارقة والأساقفة اليها ويكرمهم المسلمون » .

يعبر الروم الكنائس الخربة فى تلك المنطقة ويسافر البطارقة والأساقفة اليها ويكرمهم المسلمون .

١٩ — « إن العشر الذى يؤخذ من بلد الروم ، يجلس عشار الملك مع عشار قرغويه وبكجور فهما كان من التجارة من الذهب والفضة ، والديباج الرومى ، والقز غير معمول ، والاحجار والجوهر ، واللؤلؤ ، والسندس ، عشره عشار الملك ، والثياب والكتان والمزبون والبهائم وغير ذلك من التجارات يعشره عشار الحاجب وبكجور بعده ، وبعدها يعشر ذلك كله عشار الملك » .

تقدر العشور (أى نسبة الضرائب على التجارة) على النحو التالى :
فالعشر الذى يؤخذ من بلد الروم يجلس عشاسار الملك مع عشاسار قرغويه
وبكجور فمهما كان من التجارة الرفيعة من الذهب والفضة والديباج الرومى
والأحجار والجوهر وغيره عشره عشاسار الملك . أما الكتان والبهاثم وغيرها
من التجارة الوضعية فكان يعشره عشاسار الحاجب وبكجور بعده ثم يعشر
ذلك كله عشاسار الملك .

٢. — « متى جاءت قافلة من الروم ، تتصد حلب ، يكتب الزروار (١)
المقيم فى الطرف الى الأمير ، ويخبره بذلك لينفذ من ينسلها ، ويوصلها الى
حلب . وان قطع الطريق عليها بعد ذلك ، فعلى الأمير أن يعطيهم مذهب .
وكذلك إن قطع على القافلة أعراب أو مسلمون فى بلد الأمير ، فعلى الأمير
غرامة ذلك » .

* * *

هذه هى أهم بنود الاتفاقية أو الهدنة أو المعاهدة التى عقدت بين
قرغويه والروم ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م وقد حلف على تلك النصوص جماعة
شيوخ حلب مع الحاجب وبكجور وسلم المسلمون رهائن من أهل حلب (٢)
ضمانا لتنفيذ الشروط السابقة .

وبتحليل شروط هذه الاتفاقية نجد أن البندين الأول والثالث تناولا
الجزية التى على الرؤوس والخراج الواجب على الأرض . وتبدو التفرقة
واضحة بين ما يؤخذ من السلم والمسيحي حيث فرضت الجزية على كل
مسلم بدون استثناء وقد ورد هذا فى البند الأول ، أما البند الثالث فيظهر
فيه استثناء بعض المسيحيين من دفع الجزية حيث جعل شرط دفعها على
المسيحي أن يكون له مسكن أو أرض بأرض الهدنة .

أما البند الثانى فقد نص على أن يتولى إمرة حلب الحاجب قرغويه ثم
بكجور ثم يولى إمبراطور الروم من يشاء من سكان حلب بعد ذلك ، وقد
أكد نفس المعنى فى البند السادس عشر .

(١) الزروار هو أحد المناصب عند الروم عددها لنا ابن حوقل فى كتابه
صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ١٩٥ — ١٩٦ فالملك يتبعه فى المنزلة
اللغيط ثم الفرخ ثم الديمستق ثم انبطارقة ثم الزرارة ثم الطرامخة .

(٢) كان الرهائن هم أبو الحسن بن أبى أسامة ، وكسرى ابن كسور ،
وابن أخت ابن أبى عيسى ، وأخو أبى الحسن الخشاسب ، وأبو الحسن بن
أبى طالب ، وأبو الطيب الهاشمى ، وأبو الفرخ العطار ، ويمن غلام قرغويه .
وكان المتوسط فى هذه الهدنة رجل هاشمى من أهل حلب يقال له طاهر .

(م ٧ — دراسات)

وأعطى البند السابع عشر امبراطور الروم الحق في اختيار قاضي من المسلمين يرجعون اليه في أحكامهم وذلك بعد وفاة قرغويه وبكجور ، مما يشير الى أن قرغويه ومساعدته كانا يتوليان السلطة القضائية في حلب .

وتنصب البنود من الرابع حتى التاسع بالاضافة الى الخامس عشر على الناحية العسكرية وهى في أغلبها امتيازات للروم فقط ، فالبند الرابع يحتم على أهالى منطقة الهدنة عدم السماح لأى جيش اسلامى باستخدام أرضهم معبرا الى بلاد الاسلام والا رفع الأمر الى الامبراطور أو الدمشق ليبت فيه .

بينما يجعل البند السادس من بكجور مرشدا ودليلا لجيش الامبراطور او قائده اذا نوى مهاجمة بلاد المسلمين .

ويشير البند السابع الى أن أهالى بلاد الهدنة ملزمين بتقديم احتياجات الجند البيزنطى أثناء مرورهم ببلادهم يشترونها منهم ، وبناء على ذلك لايسمح للاهالى بمغادرة البلاد في ذلك الوقت . أما علف الخيل وهو (التبن) فيقدمه الأهالى لخيول الروم دون مقابل .

ويفرض البند الثامن على أمير حلب نفسه أن يتقدم قوات الروم حتى تعبر بلاد الهدنة ثم يعود بعد ذلك الى مقره .

وأكثر من هذا فان البند التاسع يجعل مساعدة أمير حلب لامبراطور الروم في أى حرب مع غير المسلمين شيئا حتميا لابد أن يقدمها الأمير عن طيب خاطر .

أما البند الخامس عشر فيحتم على المسلمين عدم تخريب أو تعمير أى حصن داخل البلاد التى تشملها الهدنة .

وهكذا كبل الروم حلب وأرض الهدنة بقيود حديدية عسكرية بما أملوه على أهلها من التزامات ثقيلة .

أما فى الناحية الدينية فقد رفعت الاتفاقية الحرج عن أى مسلم يدخل فى النصرانية أو أى نصرانى يدخل فى الاسلام وجاء ذلك فى البند العاشر .

كذلك أتاح البند الثامن عشر للروم تعمير الكنائس الخربة فى منطقة الهدنة وأن يحظى البطارقة والأساقفة فيها بتكريم المسلمين .

أما البندان التاسع عشر والعشرون فيعالجان الجوانب التجارية وفيها يبدو الإجحاف واضحا بالمسلمين .

كذلك يبدو الحيف الذى أنزلته هذه الاتفاقية بالجانب الإسلامى عندما نص البند الثالث عشر على السماح لآى رومى بدخول بلاد الإسلام بينما منع البند الرابع عشر دخول المسلم الى بلاد الروم بل اعتبر أنه جاسوسا فى هذه الحالة ولزم القبض عليه وحبسه .

هذا الى جانب العديد من البنود الأخرى التى تمثل فى مجملها امتيازات للروم على حساب المسلمين .

وهكذا غدت حلب — وفقا لتلك الاتفاقية — إمارة تابعة للإمبراطورية البيزنطية (١) ويذكر « جروسية » أن نهر العاصى كان يمثل الحد الفاصل بين تلك الإمارة التابعة أو الخاضعة وبين « أراضى أنطاكية التى غدت منذ ذلك الوقت فصاعدا جزءا من الإمبراطورية يحكمها موظف بيزنطى يحمل لقب الدوق » (٢) .

والواقع أن الاتفاقية المعقودة بين ابن شقيق نقفور فوقاس — بطرس فوقاس — من ناحية البيزنطيين ، وبين الحاجب قرغويه ، من الجانب الإسلامى تمثل أقصى الضربات الدبلوماسية التى حلت بالمسلمين فى النصف الأخير من القرن العاشر للميلاد . وقد عبر المؤرخون الغربيون عن الذل الذى أصاب الجانب الإسلامى فى تلك الاتفاقية ، فقال بعضهم « أن أحد سلالة بيت سيف الدولة اضطر الى عقد صلح مخزى مع البيزنطيين » (٣) وقال آخر أنه « لم يلحق بالإسلام أبدا مثل ذلك الأذلال » (٤) وربما كان ذلك هو الدافع لأحدهم بوصف نص الاتفاق بأنه « النص القوى المفيد والمثير » (٥)

وربما كان إحساس المسلمين بالخزى والعار هو السبب فى أن المصادر العربية أشارت الى شروط الهدنة فى شىء من الإيجاز والاقتضاب فضلا عن أن أغلبها توقف عن التعقيب عليها .

1 — A.A Vasiliev : Op. cit, T.1, P. 409, Canard : Op. cit, T.1, P.833 .

2 — René Grousset : L'Empire de Levent, P. 116 .

3 — G. Ostrogorsky : Op. cir , P. 290 .

والواقع أن قرغويه الذى وقع الاتفاقية مع البيزنطيين لم يكن من سلالة سيف الدولة الحمدانى .

4 — A.A Vasiliev : Op. cit, T.1, P. 409, René grousset : Op. cit , P. 116 .

5 — A.A Vasiliev : Ibid , T. 1, P. 409 .

والواقع إن خضوع حلب بهذه الصورة للنفوذ البيزنطى كان له رنة الم وأسف فى نفوس المسلمين عامة ، وظهر صدق ذلك فى بغداد حاضرة الخلافة العباسية حيث اجتمع المسلمون وطالبوا الخليفة العباسى المطيع بالخروج للاخذ بثأر أهل حلب (١) ولكن الخلافة العباسية كانت عندئذ أضعف من أن تتحرك .

والحقيقة أن الروم عظمت شوكتهم بعد هذه الهدنة أو الاتفاقية واستبد عبثهم بالمناطق الواقعة شرقى آسيا الصغرى ، وخاصة تلك التى يملكها المسلمون . وخير دليل على ذلك ما ذكره ابن الأثير عن الروم بعد عقد اتفاقيتهم مع قرغويه مباشرة سنة ٣٥٩ هـ حيث قال « وفيها أرسل ملك الروم جيشا الى ملازكرد من أعمال أرمينية ، فحاصروها ، وضيقوا على من بها من المسلمين وملكوها عنوة وقهرا ، وعظمت شوكتهم ، وخافهم المسلمون فى اقطار الأرض . وصارت كلها سائبة لا تمنع عليهم يقصدون أيها شأوا » (٢) .

أما عن الامبراطور فوقاس الذى رأى فتح أنطاكية على يد قواده فان القدر لم يمهله ليشهد عقد المعاهدة الحلبية البيزنطية فى صفر ٣٥٩ هـ/ يناير ٩٧٠ م ، حيث ان تلك الاتفاقية عقدت بعد مقتله فى نهاية ٩٦٩ م (٣) المحرم ٣٥٩ هـ (٤) .

ولم تخف المصادر العربية المعاصرة تشقى المسلمين فى الامبراطور نقفور الذى قتل « بطريقة وحشية مؤلة » (٥) ، من ذلك ما يذكره المؤرخ ابن الأثير عن امبراطور الروم من أنه « لما استفحل أمره أتاه الله من حيث لم يحتسب » (٦) .

وهكذا لم يشهد نقفور أعظم ثمرة لجهوده الحربية الكبيرة وهى اخضاع شمال بلاد الشام للحكم البيزنطى . وإذا كان ذلك من أهم النتائج المترتبة على اتفاقية صفر ٣٥٩ هـ/ يناير ٩٧٠ م ، فان آثار ذلك الاتفاق ظلت قائمة

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٩ هـ .

A.A. Vasiliev : Op. cit, T.1, P. 409, M. Canard : Op. cit, T. 1, P. 837, G. Ostrogcrsky Op. cit P. 293 .

وقد حدد الاخير تاريخ وفاته بليلة ١٠ — ١١ ديسمبر ٩٦٩ م .

(٤) يحيى بن سعيد الانطاكى : تاريخه ، ١٣٦ ، ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٩ هـ . هنا يحدد يحيى بن سعيد وفاته بأنها كانت « لليلتين بقيتا من المحرم سنة تسع وخمسين وثلاثمائة » .

C. W Previte — Orton : Op. cit , V. 1, P. 259 .

(٦) ابن الأثير : الكامل ، حوادث ٣٥٩ هـ .

في مخيلة البيزنطيين فكانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب الحق الطبيعي في تلك المنطقة .

ذلك أن الب أرسلان سلطان سلاجقة فارس أنزل بامبراطور الروم هزيمة ساحقة في موقعة مانزكرت ٤٦٣ هـ (١) / ١٠٧١ م ، وبعدها أخذ نفوذ السلاجقة المسلمين يمتد سريعا الى شمال وشرق آسيا الصغرى وقد ظهر من أقارب السلطان ملكشاه من أخذ يتوسع في آسيا الصغرى ونخص بالذكر سليمان بن قتلмыш الذي استولى على ثلاثة أرباع آسيا الصغرى . ثم حدث في ٤٧٧ هـ / ١٠٨٥ م أن نجح سليمان بن قتلмыш في الاستيلاء على أنطاكية التي كانت عندئذ في حوزة أمير أرمني اسمه فيلاريتوس (٢) . وقد نازع العقيليون — وهم قبيلة عربية — السلاجقة في ملكية أنطاكية ، ودارت معركة حامية بين سليمان بن قتلмыш من ناحية والأمير شرف الدين مسلم العقيلي من ناحية أخرى ، وانتهت هذه المعركة بسيطرة السلاجقة المسلمين على شمال الشام (٣) .

ولكن الدولة البيزنطية لم يفمض لها جفن عن أراضيها التي ضاعت في أيدي المسلمين في آسيا الصغرى وشمال الشام . من ذلك أنه ما كادت الحملة الصليبية الأولى تصل الى الشرق في أواخر القرن التالي أي القرن الحادى عشر للميلاد — حتى تصور الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنين ١٠٨١ — ١١٦٨ م / ٤٧٤ — ٥١٢ هـ أن باستطاعته أن يستغل القوى الصليبية الغربية القادمة للشرق لتعمل تحت إمرته لاستعادة السيادة البيزنطية على كافة آسيا الصغرى وشمال بلاد الشام التي استعاد المسلمون السيطرة عليها . وبمقتضى اتفاقية ١٠٩٧ م / ٤٩١ هـ بين الامبراطور الكسيوس وأمراء الحملة الصليبية الاولى واتفق الاخيريون على ذلك ، ولكنهم لم يلتزموا بتنفيذها الا في آسيا الصغرى فقط ، وبوصول الصليبيين الى شمال الشام وأنطاكية ظهرت أطماع الأمراء وأخذ كل منهم يفكر في أن يعمل لحسابه الخاص .

* * *

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٠٠ « الطبعة الاولى ١٩٦٦ » .

(٢) ابن القلائس : ذيل تاريخ دمشق ، ص ١١٧ .

(٣) د . سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

